

الفصل الثاني عشر

التضامن الاجتماعي في الدعاء الإنساني

لقد جاء الإسلام والناس فوضى لا ضابط لهم، قد استبد بهم ما قوض حياتهم وعاق تقدمهم فشرع لهم من المبادئ والقيم والحقوق والواجبات ما به سعدت أمة العرب ومن دان بدينهم في وقت قصير جداً من الزمن لا وزن له إذا ما قيس بحضارات الأمم.

لم يعتبر الإسلام أن الطعام والشراب مشكلة في حد ذاتها كما ترى وزارات الشئون الاجتماعية بل نظر إليها من جهتين:

الجهة الأولى: أن الطعام والشراب مكفولان للجميع لمن آمن ولمن كفر وللإنسان وغبيره من سائر المخلوقات لقوله تعالى: ﴿وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا﴾^(١) حتى الطير لأنه يدب على الأرض للسقى والتقاط الحب.. فهذه قضية حل إشكالها بهذه الآية الكريمة.

كما حلت بآية أخرى في سورة العنكبوت وهي قوله تعالى: ﴿وَكَايِنٍ مِنْ دَابَّةٍ لَأَ تَحْمِلُ رِزْقَهَا اللَّهُ يَرْزُقُهَا وَإِيَّاكُمْ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾^(٢).

ولقد طمأن الله ابن آدم طمأنينة كاملة حيث أقسم له تعالى على ذلك في سورة الذاريات حتى لا يركب متون الخطر في سبيل لقمة العيش فقال تعالى: ﴿وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تَوَعَّدُونَ﴾^(٣) فَوَرَبِّ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ لَحَقٌّ مِثْلَ مَا أَنَّكُمْ تَنْطِقُونَ^(٤).

(١) هود: ٦.

(٢) العنكبوت: ٦٠.

(٣) الذاريات: ٢٢.

فالله تعالى يقول للبشرية جمعاء أن رزقكم مكفول عندي وطعامكم وشرابكم واقع لإمحالة وما ينبغي أن تشكوا في ذلك فكما تتيقنون نطقكم فكذلك لاتشكون في رزقكم.

أما ما يراه البعض من أن بعض الخلق يموت جوعاً فمرد، أمران اثنان هما:

١- سوء التوزيع المالى بين الناس.

٢- ومعاصيهم التي يمتحنون بالبلاء من أجلها فيصيبهم الجوع والعري. لقوله تعالى: ﴿وَتَبْلُونَكُمْ بِشَيْءٍ مِنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنْفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ ﴿١٥٥﴾﴾^(١) حتى من دقة القرآن أنه عبر عن هذا بالبعضية فقال: ﴿وَتَبْلُونَكُمْ بِشَيْءٍ مِنَ الْخَوْفِ﴾ . الخ. أى ببعض هذه الأمور للاعتبار والعظة والرجوع إلينا ولم يهدف القرآن إلى الحرمان الكامل بل ابتلى عقوبة واختباراً وفتحاً لباب التوبة ونشر التعاون بين الناس حتى يمد القوى الغنى الفقير باحتياجاته. فالإصابة بالجوع والعطش لالتخلف كفالة الله بأرزاق العباد بل للإختبار والبلاء وفتح المجال للعودة إلى الله تعالى، وحث الهمم الصادقة من المسلمين لمساعدة إخوانهم البؤساء والمحرومين.

الجهة الثانية: هي أن الإسلام فرض حقاً معلوماً من أموال الأغنياء لفقرائهم فإن لم يف بحاجاتهم فعلى الحاكم أن يأخذ من فاضل أموالهم ليردها عليهم وليسد به عوزهم.

الإسلام ومشاكل الإنسان الحقيقية

لهذا لم ير الإسلام أن مشكلة الإنسان هي طعامه وشرابه بل مشاكله الحقيقية غير ذلك. وأهمها مايلي:

- ١- مشكلة العقيدة. ٢- الأخلاق. ٣- السلوك. ٤- الجنس.
- ٥- الفكر والعقل. ٦- النفس. ٧- الأناية. ٨- الاقتصاد.

١- **أما مشكلة العقيدة:** فقد حلها بأيسر طريق ذلكم العربي الذي لم يتخرج من جامعاتنا المعاصرة حيث قال: البعرة تدل على البعير والسير يدل على

(٢) البقرة: ١٥٥.

المسير . . إله وقال القرآن الكريم: ﴿ شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ (١٨) ﴿١﴾ .

وآيات الوجدانية وصفاته وأفعاله تعالى منبهة بكثرة في القرآن الكريم، كما أن السنة النبوية مليئة بذلك كاشفة وموضحة . . والبراهين العقلية والنقلية زاخرة أيضاً .

٢- **المشكلة الأخلاقية:** لقد وضع الإسلام من قواعد الأخلاق ما عجزت عنه عباقرته أن يصلوا إلى ما وصل إليه ويكفى أن نذكر حديث رسول ﷺ القائل: «إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق» .

فقد حثت الآيات الكثيرة والأحاديث العديدة على الصدق والأمانة والعفة والشرف وعلى كل خلق كريم من شأنه أن يساعد المجتمع الإسلامي على أن يعيش في سعادة وارفة الظلال . .

٣- **المشكلة السلوكية:** رأى الإسلام أن النظريات الأخلاقية التي أمر بها المسلمين وحثهم على التحلى بها والتمسك بأهدافها لا يقطفون ثمارها إلا إذا نفذوها وجعلوها سلوكهم في الحياة مع كل كائن، لأن العبرة بالعمل لا بالقول، وبالتطبيق لا بالكلمات والألفاظ، ولذلك قال الله تعالى في شأن رسوله ﷺ: ﴿ لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا ﴾ (٢١) ﴿٢﴾ .

ولهذا فالإسلام يطالبنا بالتطبيق العملي لكل نظرية أخلاقية وردت في القرآن والسنة .

٤- **المشكلة الجنسية:** هي من أهم مشاكل المجتمعات المعاصرة ولقد كانت النظم القديمة والتقاليد والعادات المستحدثة والمستوردة عقبة كتود في حل هذه المشكلة بل ساهمت بنصيب أوفر في تعقيدها فرفع سن الزواج للذكور والإناث كان سبباً مهماً للانحراف الجنسي، ولقد ساعدت على ذلك وسائل الإعلام المسموعة والمقرونة والمقرونة بما تحمل من دعوة إلى الجنس بتصويره في أشكال متعددة وتيسيره والتشجيع عليه .

(١) آل عمران: ١٨ .

(٢) الأحزاب: ٢١ .

وزاد الطين بلة توظيف النساء مما دعى إلى تأخر الزواج حتى التخرج من الكليات وإعداد السكن المناسب والأثاث الحديث الجميل وهلم جرا. . حتى أصبحت الفتاة تعرف كل شيء عن الجنس حيث جاوز بعضهن الثلاثين عاماً أى كانت صالحة للزواج منذ خمسة عشر عاماً فكيف قضت هذا الوقت الطويل وهى فى سن المراهقة الجنسية .

لقد عالج الإسلام مشكلات الجنس بأكثر من طريق بإعداد الفتاة إعداداً صالحاً لتكون زوجة وأما وربة بيت ممتازة وصالها من ذناب البشرية ففرض عليها الحجاب وستر جميع بدننها إلا الوجه والكفين وأمرها بغض بصرها والبعد عن الإختلاط بغير المحارم وبالمحارم إن كان غير مرضى السلوك والأخلاق، وأمرها بعدم الخروج من الدار إلا للضرورة وليست الوظيفة ضرورة لأن المرأة ماخلقت لتسعى على لقمة عيشها أو لتنفق على غيرها فضلاً عن نفسها بل النفقة واجبة على غيرها من الرجال ممن تحملوا مسئولياتها .

كما عالج الإسلام مشكلة الجنس بالصوم والرياضة البدنية، وهكذا وضع الإسلام قواعد متينة ونقية للحفاظ على عرض المرأة كما وضع قواعد تنظيمه . . وأن الكلام فى هذا الموضوع يطول شرحه والمقام لايتسع لهذا . .

٥- المشكلة الثقافية: مشكلة الفكر والعقل حرص الإسلام أن يجعل مصدرها القرآن والسنة وسير الصالحين من عباد الله، وحث العقل والفكر بالتزود من فضائل النظريات ومكارم القضايا الأخلاقية، ومدح الإسلام العقلاء وأولى الألباب الذين يشحنون عقولهم بالمعارف والثقافات النافعة لهم ولدينهم وأوطانهم ويتعدون عن الخرافات والعقائد الفاسدة والمعارف المتبدلة الرخيصة الهادفة إلى الجنس والجريمة وسوء الخلق وهدد الله اللسان بقوله: ﴿ مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ﴾ (١٨) (١)

وامتدح أولى الألباب قائلاً ﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ آيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ ﴾ (١٦٠) (٢) وذم الكفار فقال: ﴿ لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ

(١) ق: ١٨ .

(٢) آل عمران: ١٩٠ .

بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ ﴿١﴾ .

٦- مشكلة النفس: لقد امتلأت المستشفيات والمصحات بمرضى الأمراض العصبية والنفسية ولعل السبب في هذا الحياة العصرية التي نعيشها اليوم بكل ما فيها من تحلل وانحراف.. وما العلاج منها إلا بالعودة إلى رحاب الإسلام والتزود بثقافة القرآن الذي قال الله فيه: ﴿ وَنُنزِلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَارًا ﴾ (٨٢) . . . فللوقاية من العقد النفسية وللتقليل منها بل وإزالتها لا بد من ملء هذه النفس بالآيات القرآنية والعمل على تلاوتها وتكرارها في الصباح والمساء وعلى ضوء هذا بمشيئة الله يزول كل فكر سقيم وألم نفسي وتعود الروح لصفائها والنفس لفطرتها النقية الطاهرة لقول الله تعالى: ﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا ﴾ (٩١) . . . وبالتقوى والإستقامة يجعل الله للمرء مخرجاً من كل ما يضايقه سواء كانت مضايقات نفسية أو غير نفسية لقوله تعالى: ﴿ وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا ﴾ (١) . . . الآية .

٧- مشكلة حب النفس: هذه المشكلة من المشاكل الهامة التي قد تكون سبباً لتقدم الإنسان وازدهار وطنه إن دخلت من باب التنافس وإلا فذلكم الحب الممقوت والأناية البغيضة حيث أن الأناية الذي يحب نفسه يرى كل الخير لها لا لغيرها، ولذلك حث القرآن على نبذ هذه الصفة وطرحها خلف الظهر حتى لا تحطم صاحبها أولاً والأسرة ثانياً والمجتمع ثالثاً .
ولهذا كله قال المصطفى ﷺ: «لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه» .

٨- مشكلة الإقتصاد: دعا القرآن إلى الأخذ بمبدأ الإقتصاد في كل شئون الحياة فلا تبذير ولا تقير . . . فقد قال الله تعالى: ﴿ وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِنِّي عَنْتُكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا ﴾ (٢٩) . . . وقال جل شأنه ﴿ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ ﴾ (٦) .

(١) الأعراف: ١٧٩ .

(٢) الإسراء: ٨٢ .

(٣) الشمس: ٩ .

(٤) الطلاق: ٢ .

(٥) الإسراء: ٢٩ .

(٦) الأعراف: ٣١ .

وقال تعالى: ﴿وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ﴾^(١).

ومشكلة السياسة والإسكان والمواصلات وزيادة المواليد وغيرها قد جعل الإسلام لها حلاً ميسوراً في كلمات معدودة ألا وهي التحلى بالتقوى - والإيمان - والتوكل - والاعتماد على الله - والإخلاص - والإلتقان . إلخ .

قال تعالى: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ وَيُعَلِّمَكُمُ اللَّهُ﴾^(٢) . . ﴿وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مِنْ أَمْرِهِ يُسْرًا﴾^(٣) هذه المشكلات سابقة الذكر وغيرها لو تركت على عواهنها دون علاج بتعاليم الإسلام قد تؤدي إلى أوحم العواقب وأسوأ النتائج . . وأى علاج بعيد عن نطاق القرآن والسنة الشريفة فهو داء الأدواء وسم زعاف يفتك بالمريض يدل على أن يشفيه ويبرئه .

ومن خلال هذه المشكلات يتأتى التعاون الذى أمرنا الله فى قوله: ﴿وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مِنْ أَمْرِهِ يُسْرًا﴾^(٤).

وأى مشكلة من هذه المشاكل حلها يتوقف على أحد أمرين أوهما معاً: الحل الوقائى والحل العلاجى . . أما الحل الوقائى: فيكون بتقديم النصيحة والإرشاد والتوجيه للإبتعاد أولاً عن كل مايسبب المشكلة ويوجد لها . . وقد يكون من طرقه تقديم المساعدات المالية والعينية . . والحل العلاجى: يكون بالعمل الجاد المتواصل سواء كان بالمجهود المالى أو اليدوى أو الثقافى . . وعلى كل حال فمجال التعاون بين الناس واسع ومتعدد الجوانب والأبواب . . يشمل الإبتسام والكلمة الطيبة والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر والإنذار والتبشير والتفاؤل والتحذير وغير ذلك مما يعود على الفرد والجماعة بالخير . . وقد يكون كل ذلك ميسر صدوره من إنسان، وقد لايتأتى إلا بعبءه، وقد لاتساعد الظروف . . فى تحقيق شىء منه .

قد يقوم الإنسان فى مجال التعاون بشىء مما سبق غير أنه قد يتحقق هدفه منه وقد لايتحقق إلا أن هناك نوعاً من التعاون البناء سهل ميسور على كل إنسان لا يحتاج إلى جهد عقلى ولاجسمى ولامادى هذا بالإضافة إلى أنه محمود العواقب مضمون النتائج هذا النوع هو المسمى «بالدعاء» .

(١) الطلاق: ٣ .

(٢) البقرة: ٢٨٢ .

(٣، ٤) الطلاق: ٤ .

أهمية الدعاء في حياة الإنسان وأثره في المجتمع

الدعاء: هو أرقى أنواع التعاون لأنه أفضل أنواع العبادة ولأنه أضمن الأعمال نتيجة وأقرب الطرق إلى الهدف المنشود. فهو عنصر فعال في يد كل راغب فيه، وهو سلاح فتاك لمن استعمله ضد الأعداء لم يظلب الله من عباده الوساطة إذا دعوه أو ناجوه.

والدعاء: ماهو إلا كلمات تخرج من القلب ثم تجرى على اللسان لايبغى بها صاحبها إلا الخير لمن رصدت له فتمتجيب السماء لذلك الداعي لغيره المخلص لخصائه الوفي لخلانه الحميم لأصدقائه.

فالدعاء دعامة قوية لتوطيد أواصر المحبة بين أفراد المجتمع وتوسيع دائرة الأخاء بين الناس وتعميق جذور الود والصفاء لدى نفوس الجميع. وقد لا يكون الداعي عنده المال الكافي ولا الثقافة المطلوبة ولا الحسب ولا النسب فهل يموت وتموت معه آماله، وهل من الخير أن يصبح عضواً أشل في المجتمع يستطيع القيام بواجبه ولايستطيع حراكاً إزاء مشاكله ومشاكل مجتمعه ووطنه وبني جلدته. !؟

إن كان الإنسان لا يستطيع أن يقدم أى عون لأخيه الإنسان لفقدانه كل هذا أو بعضه فإن الدعاء يناديه بأعلى صوت هلم إلى أيها الإنسان فكل رغباتك أحققها لك ومايتبغيه أنفذه لك وما عنيتك إلا أن تستوفى شرائطى وتتجه إلى الله بلسان الصدق داعياً لمن أردت مساعدته فى أى نوع من أنواع المساعدة أفعّل ذلك تجدنى معك دائماً أبداً لاأنسل منك ولأبعد عنك أنا قريب منك جار على لسانك وشفيتك. فإذا ما تم ذلك تقبلنى الله وحقّق لك ما تريد لنفك ولمن دعوت له.

وكما صح وجاز أن ينتفع الإنسان بكل خير ومجهود يقدمه للغير فمن باب أولى أن ينتفع ذلك الغير بالدعاء خصوصاً إذا كان للأخ بظاهر الغيب.

فالدعاء خير وسيلة للتكافل الإجتماعى، وأعظم هدية يقدمها الإنسان لأخيه الإنسان، وبالرغم من عظم شأنه ورفعة مكانه عند الله فهو لا يكلف الداعي شيئاً لأنه لا يركز على الحسب والنسب والوساطة والجاه بل هو لاسلكى كل حى، حيث يتصل العبد بربه لشأن من شئونه أو شئون غيره من بنى عقيدته ووطنه

فلا ينتظر تحويلة المكاملة باليوم أو الساعات. . بل حينما يقول العبد يارب يقول الرب لييك عبدى وسعديك فما أسرع هذا الإتصال وما أمضى هذا السلاح وما أجمع هذا الدواء وما أنفع هذا الشفاء من كل داء أنه الدعاء مخ العبادة وسلاح المؤمن .

والدعاء بهذه الصورة منفعة متبادلة مأمونة العواقب مضمونة النتائج، عملة صعبة كما يقول اقتصاديو هذا العصر .

ولذلك لم توضع له شروط شاقة ولا قواعد جافة لقبوله وتحقيقه سوى الصدق والإخلاص وما شابه ذلك من الشروط التى لا تكلف الداعى مالا أو جهداً .

فيجوز الدعاء من الذكر والأنثى، والصغير والكبير، والمؤمن والكافر والصالح والطالح والحر والعبد والمعصوم وغير المعصوم والعربى والأعجمى والأبيض والزرنجى والموحد والملحد. . إذ الدعاء مناط بنفس عاقلة مفكرة ناطقة تستطيع العطاء والمنع ولا يكون ذلك إلا فى نسل ابن آدم وقليل من الجن والملائكة .

الدعاء مفتاح السعادة وأفضل صور التضامن الاجتماعى والتكافل الإنسانى

فلا يترك ابن آدم طريقاً يؤدي به إلى السعادة إلا ودعا الله أن يحققه له ويمنحه إياه ويديمه عليه .

والإنسان هو المخلوق الوحيد الذى استخلفه الله فى أرضه ليقوم شرعه وينشر عدله فجعله ظله فى خلقه فطوع له الحياة بما منحه من نعمة العقل غير أن هذه الحياة من شأنها لم تدم لأى إنسان بل أيامها قلب حيث يتصارع خيرها مع شرها وظلامها مع نورها، وصفوها مع كدرها والإنسان بين رحاها فتارة تكفهر فى وجهه فيبدو هزياً ضعيفاً مشدوهاً لا يستطيع حراكاً ولا هرباً من قسوة منازل، وعظم ما حل به فيجأ إلى الله ضارعاً كسير الفؤاد دافع العين آملاً معه أن يرفع عنه ما حل به من بلاء . . وتارة تنفتح أسارير الدنيا لهذا العبد فيهب لها ويأمل منها تحقيق آماله وأحلامه راغباً فى حياة سعيدة بما فيها من معنى السعادة . .

فيبذل ذلك المسكين جهده ويفرغ طاقته في الحصول على ذلك أو بعضه غير أنه يكتشف من نفسه العجز وعدم القدرة على الإنجاز ويظهر له جلياً أنه غير قادر على التنفيذ وغير مستطيع إلى الوصول فيتجه إلى الكريم الذي لاتنفذ خزائنه يرجوه العطاء والسعة بكرم وسخاء يليق بذاته الطاهرة وتزداد نفس ذلك صفاءً وطهراً وشفافية فيتمثل له المستقبل البعيد قريباً، يتمثل له اليوم الآخر أنه قاب قوسين أو أدنى. ذلك اليوم الذي سوف يلقاه بماقدم من عمل فيرفع أكف الضراعة إلى خالقه ليجنبه العذابين، عذاب القبر وعذاب النار، ويزيل عنه ما يعترى العباد من شدة وكرب في مواقف البعث والحشر والحساب وأن يمن عليه بالصفح والعفو والمغفرة وواسع الرحمة فيدخله الجنة التي أعدها لعبادة المتقين.

وكما يلقى الفرد الشدائد والصعاب في حياته الدنيا ثم يطلب الغوث والنجدة من الله فكذلك الجماعة حينما تستهدفها المحن والبلايا تجار إلى الله ليصرف عنها السوء.

ومن أجمل وأعظم ما يراه المسلم من خلال الأدعية الواردة في القرآن والسنة مجيئها على صورة الجمع، ومما تلاحظه أيضاً فيها أنها غير منسوبة لقاتل وهذا مما يرفع مكانة هذه الأدعية ويعلى قدرها كما يوحى بأن الأمر بها هو الله تعالى فكانت في الدرجة العليا من القبول. . انظر قول الله تعالى في سورة الفاتحة:

﴿ اِهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ﴿٦﴾ صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ ﴿٧﴾ ﴾^(١).

نجدها قد صيغت بصورة الجمع ولم تنسب لقاتل مما يدفع المرء إلى الاعتقاد بأنها من وحى الله الذي أمر العباد بترديده صباح مساء لتدوم الصلة بين العبد وربّه داعياً متضرعاً ولذا جاءت في سورة الفاتحة التي لاتصح الصلاة بدونها.

وانظر قوله تعالى أيضاً في آخر سورة البقرة: ﴿ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِنْ نَسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِنَا رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ وَاعْفُ عَنَّا وَارْحَمْنَا أَنْتَ مَوْلَانَا فَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ﴾^(٢).

(١) الفاتحة : ٦ ، ٧ .

(٢) البقرة : ٢٨٦ .

نجد أن هذا الدعاء غير منسوب إلى قائل من البشر وإنما هو دعاء تعبد الله به عباده أن يرددوه فتزدان به نفوسهم وتطمئن به قلوبهم، وتسود روح المحبة والإخاء بينهم .

وإنك لتجد الكثير من أدعية القرآن الكريم على هذه الصورة وإن تعجب فاعجب لسلوك السنة هذا المسلك ومطابقتها القرآن الكريم في هذا المضمار حيث ترى أن معظم أحاديث الرسول ﷺ في صورة الجمع . . ففي مقام الحرب يروى أبو موسى الأشعري أن النبي ﷺ « كان إذا خاف قوماً قال: إنا نجعلك في نحورهم ونعوذ بك من شرورهم »^(١) .

ويروى جابر عن الرسول ﷺ أنه قال: « لاتتمنوا لقاء العدو فإنكم لا تدرن مايتلون به منهم فإذا لقيتموهم فقولوا: أنت ربنا وربهم، وقلوبهم بيدك وإنما تغلبهم أنت »^(٢) .

وحين خرج رسول الله ﷺ يتفقد أحوال المهاجرين والأنصار عند حفر الخندق، فرآهم يحفرون في غداة باردة، فلما رأى ما بهم من النصب والجوع قال: اللهم إن العيش عيش الآخرة . فاغفر للأنصار والمهاجرة .

ولقد سلك الإسلام بقرآنه وسنته هذا المسلك الجماعي في الدعاء لكي يعرف المسلم أن المرء قليل بنفسه كثير بإخوانه، وأنه لا حياة للأفراد إلا في نطاق الجماعة، ولقد خلق الله الذكر والأنثى وجعلهم شعوباً وقبائل ليتعارفوا فيتعاونوا فيشتمروا فتستقيم الحياة وينعم الجميع، وترفرف السعادة ورايات الأخوة الصادقة على الجميع ومن أجل هذا جاء الدعاء بصورته هذه ليعيش المسلمون حياة سعيدة وارفة الظلال .

والإسلام الحنيف عقد بين المؤمنين عامة عقد الأخوة الذي نقلهم إلى دائرة الأسرة الواحدة على تنائي ديارهم وتباعد أقطارهم قال تعالى: ﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ ﴾^(٣) . . وبأبلغ في محبة المسلمين بعضهم لبعض حتى جعلها شرطاً في الإيمان فقال ﷺ: « لاتدخلوا الجنة حتى تؤمنوا ولاتؤمنوا حتى تحابوا » .

(١) رواه أبو داود والنسائي .

(٢) رواه ابن السني .

(٣) الحجرات : ١٠ .

ومما يجدر الإشارة إليه هو أن الإسلام دعا أتباعه المسلمين لأن يدعو بعضهم لبعض بالخير في كل مناسبة طيبة وعند كل لقاء وبخاصته في أزمان البر وأماكن الطهر بل حثهم على الدعاء لإخوانهم بظهر الغيب أى وهم غائبون عنهم .

انظر إلى قول الله تعالى في سورة الحشر: ﴿ وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ ﴾ (١) . فهذه الآية تعليم للمسلمين الذين عاشوا الحياة بعد المهاجرين والأنصار أن يرفعوا أكف الضراعة بالدعاء لهم وهو وإن كان تعليم للتابعين فهو أيضاً لكل مسلم أن يدعو به أى يدعو لنفسه أولاً ثم يدعو لمن سبقه إلى دار الآخرة فأفاد هذا الدعاء «فضلاً عن كونه تعليماً» الإعجاز لإخباره عن مغيب سيقع بعد نزوله وقد ثبت ذلك بتلاوة المسلمين لهذه الآية وبدعائهم لمن سبقوهم جميعاً في أدعيتهم الخاصة .

فهذه الآية تشعرننا بأن نطلب المغفرة لمن سبقنا بالإيمان إلى عالم الآخرة كما تعلمنا الرجاء من الله أن يزيل ما فى نفوسنا وقلوبنا من غل لإخواننا الذين هم على قيد الحياة . وهكذا يُعلم القرآن كل جيل من الأجيال المسلمة الدعاء لنفسه ولمن سبقه ولمن عاصره من المسلمين .

ولقد ضربت السنة المحمدية بسهم وافر فى هذا المضمار، فعن أبى الدرداء رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «دعوة الأخ لأخيه بظهر الغيب مستجابة عند رأسه ملك موكل كلما دعا لأخيه بخير قال الملك الموكل به آمين ولك بمثل مادعوت» (٢) .

وبهذا نستطيع القول بأن الدعاء يشق طريقه إلى الأفراد ليجمع صفوفها، ويوحد خطوها، ويحدد هدفها، فإن دعوة الأخ لأخيه أجمل هدية يهديها إليه لأنه يذهب بها وغر صدره ويجلب له بها المسرة، ويوطد بها أواصر المحبة، وينمى بينهما روح التضحية، ويغرس شجرة الصفاء والإخاء والتعاون بين الجميع . فالدعاء هو أفضل صور التضامن الإجتماعى والتكافل الإنسانى بما يحمل فى طياته من معانى الحب وتنمية أواصر الإخاء بين مختلف بنى البشر .

(١) الحشر: ١٠ .

(٢) رواه مسلم، وأخرجه محمد بن عبد الواحد المقدسى الحافظ فى مستخرجه .